العسكرة الاستشراقيّة
وانعكاساتها الكوارثيّة على العرب والمسلمين

- **د. صالح زهر الدين**
- **جامعة الجنان-طرابلس - لبنان**

لم يحظَ موضوع «**العسكرة الاستشراقيّة**» أو «**الاستشراق العسكري**» ضد العرب والمسلمين في منطقتنا، بما حظي به «**الاستشراق السياسي**» ورموزه على هذا الصعيد. وليس باستطاعتنا القول أن هذا التقصير ناجمٌ عن عدم اهتمام الباحثين والمؤرّخين بهذه المسألة، بقدر ما هو نقص في المراجع والمصادر، أو عدم انتباهٍ إلى هذه القضية الخطيرة والحساسة معًا.

فانطلاقًا من قناعتنا بالترابط الوثيق بين السياسة والحرب، والحرب بطبيعتها «**امتدادٌ للسياسة بوسائل أخرى**»[1] على حد قول المفكر العسكري كلاوزفيتز[2]*، فإن الاستشراق العسكري يستحقّ أن يُعطى أهميةً خاصةً في هذا الإطار، شأنه شأن الاستشراق السياسي، وهو بالتالي تتويجٌ له... وبالمقارنة مع المستشرقين السياسيين فإنّ دور زملائهم في السلك العسكري،

(١) أنظر: الجنرال كارل فون كلاوزفيتز «الوجيز في الحرب». ترجمة أكرم ديري، والهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٤. ص ٣١ و٣٧.

(٢) الجنرال كارل فون كلاوزفيتز هو أحد كبار العسكريين الألمان، وقد وصفه لينين، قائد الثورة الإشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ بقوله: «إن كالوزفيتز هو من أعمق المفكرين العسكريين ومن أعاظم فلاسفة الحرب ومؤرخيها. وقد أضحت أفكاره الأساسية اليوم الزاد الذي لا ينكر لكل مفكر» (راجع: كلاوزفيتز «الوجيز في الحرب». المرجع السابق نفسه، ص ٥٣).

كان مميزًا وذا فعاليةٍ سلبيةٍ بالنسبة لوطننا وأمتنا العربيّة والإسلاميّة.

واستنادًا إلى المقولة التي تؤكد أنْ «**لا شيءَ ينجح في الحرب إلا إذا تم التفكير فيه وتصميمه وإنضاجه بإرادةٍ قويّةٍ**»(1)، فقد مثّل المستشرقون العسكريون نواة «**القوة الضاربة**» ضدّ شعبنا ووطننا وثرواتنا، ولم يتم ذلك إلا وفق العملية السياسية الممنهجة والموجَّهة والمصمِّمة على تدميرنا، متسلّحةً بإرادةٍ فولاذيةٍ نضجت مع الزمن، وذلك عبر الفكرة القائلة بـ«**المحورية الأوروبية**» أو «**أوروبا المركز**» ولمصلحتها؛ إنها «**العجرفة الثقافية**»، و«**اللؤم الروحي**»، و«**العهر السياسي والعسكري**» في أعلى درجاته فعلاً.

ولعل خير معبرٍّ عن هذا الواقع، هو ما أشار إليه المستشرق غوغوير (Gogoyére) في ترجمته لألفية ابن مالك بقوله: «**إن الهدف الذي يسعى إليه الاستشراق هو الذي يطرحه المهندس العسكري على نفسه، حين يدرس منشآت العدو الدفاعية والهجومية: إنه التدمير**»(2). وفي معرض ذلك، قال د. أنور عبد الملك: «**لقد ضَمَّ الاستشراق السياسي خليطًا من الجامعيين ورجال الأعمال والعسكريين والموظفين الاستعماريين والمبشّرين والصحفيين والمغامرين، الذين كان هدفهم يقتصر على التعرف إلى الحقل المزمع احتلاله، والولوج إلى أفئدة الشعوب من أجل تأمين انصياعها للقوى الأوروبية على نحوٍ أفضلَ**»(3). بمعنى أن هذا الفريق كان عبارةٌ عن «**جنود نظاميين**»، ينفّذون «**أمرًا عسكريًا**» من قيادةٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ في الوقت نفسه؛ ومن أولى مهامّهم، العمل على تحسين الوجه الاستعماري لدى شعوب الشرق، وبذل كل الجهود والإمكانات بغية احتلال العقول والقلوب قبل الإقدام على احتلال الأرض والسيطرة على ثرواتها...

كيف لا، وقد شكل الشرق «**مختبرًا**» لتجارب المستشرقين وأبحاثهم وتحليلاتهم. كما شكّل في الوقت نفسه «**مصنعًا**» لإنتاج مستشرقين جددٍ

---

(١) كلاوزفيتز. المرجع السابق نفسه. ص ٢٨.

(٢) أُنظر: ماسينيون في «أيام الثلاثاء في دار السلام». II. عام ١٩٥٨. ص ٩.

(٣) راجع: د. أنور عبد الملك في مقال عنوانه: «الاستشراق في أزمة» وهو فصلٌ من كتابه «الجدلية الاجتماعية». La dialectique sociale Paris. Le seuil 1971. P.p. 79-113.

أيضاً: مجلة «الفكر العربي». بيروت. العدد ٣١. ك٢ / يناير - آذار / مارس سنة ١٩٨٣. ص ٧٣. (ترجمة د. حسن قبيسي).

(أو لإعادة إنتاج)، يساهمون في إماطة اللثام عن كثيرٍ من مجهولات هذا الشرق، بكل تبعاتها الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية وأنظمة الغزو.

والجدير بالذكر، أن المؤرخ والمفكر العسكري الفذّ، الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، يعتبر أول من كتب عن التداخل الهائل بين السياسة والحرب، (حيث لم يسبقه إليه أحدٌ من قبل)، وعن تبعية الحرب للسياسة؛ وعندما كتب ذلك، كان في الربع الأول من القرن التاسع عشر، (أي عندما كان الاستشراق في ذروته)، وكأنّه يكتب تحديدًا عن الاستشراق، بماهيّته وطبيعته وأهدافه، كما يعيشها هو كقائدٍ عسكريٍّ ومؤرخٍ وفيلسوفٍ ومفكّرٍ. وهو يقول في هذا الصدد: «**إن الحرب لا تخصّ ميدان العلوم والفنون، لكنّها تخصّ الوجود الاجتماعي. إنّها نزاعٌ بين المصالح الكبرى يحلّه الدم، وبهذا فقط تختلف عن النزاعات الأخرى**»[1].

وبتحديدٍ أدقَّ، يؤكد الجنرال كلاوزفيتز بقوله: «**إن الحرب أداة من أدوات السياسة، وهي تحمل بالضرورة طابعَ هذه السياسة، وعليها أن تقيس كل الأمور بالمقياس الذي تستخدمه السياسة. وليست إدارة الحرب في خطوطها العريضة إلا سياسةً، ولكنها سياسةٌ تحمل السيف بدلًا من القلم، بدون أن يمنعها ذلك من أن تفكر حسب قوانينها الخاصة**»[2].

وعلى الرغم من الخلافات الدائمة بين السياسيين والعسكريين حول كثيرٍ من المسائل، إلا أن توافقًا واضحًا يظهر من خلال هذه الخلافات بصدد الحرب. وعلى سبيل المثال ما جاء في كلمة السياسي الفرنسي الشهير كليمانصو قائلًا: «**إن الحرب تبلغ من الجديّة مبلغًا لا يجوز معه أن تُترك للعسكريين وحدهم**»[3]. وفي هذا الإطار، (وبسبب التنافس الاستعماري على المستعمرات والبلدان التابعة بين انجلترا وفرنسا)، كتب رئيس الوزراء البريطاني السابق المستر أتلي بمناسبة ظهور مذكرات الجنرال ديغول (رئيس فرنسا السابق): «**إن ديغول كان بالتأكيد رجلًا عسكريًا كبيراً، سوى أنه كان سياسيًّا سيّئًا**». فردّ ديغول على ذلك بقوله: «**إن السياسة مهمةٌ أكثرُ جدّيةً**

(١) راجع: كلاوز فيتز. المرجع السابق نفسه. ص ٢٥.
(٢) المرجع السابق نفسه. ص ٤٨٠.
(٣) المرجع نفسه ص ٢٦.

من أن تُترْك للسياسيين وحدهم»[1]. هكذا يبدو أنه لا يوجد بين الفكرتين خلافٌ أو تناقضٌ.

على ضوء ذلك نتساءل: أين يقف الاستشراق في هذه القضية؟ ومن هم رموز الاستشراق العسكري المشهورون على هذا الصعيد؟

ليس سهلاً، في الواقع، أن نتناول هذا الموضوع بكل تفصيلاته، وبعمقٍ. وما يهمّنا هو تسليط الضوء على هذه النقطة المهمّة في موضوع الاستشراق، وعلى بعض الرموز البارزة عسكريًّا، وبالتالي، الانعكاسات الكوارثيّة لأعمالهم الاستشراقيّة وعسكرتهم الخطيرة على العرب والمسلمين.

من هذا المنطلق، سنعالج مسألة الاستشراق العسكري على هذا الصعيد في كلٍّ من فرنسا وبريطانيا، باعتبارهما من أكثر الدول الأوروبيّة التي تعاملت مع شعبنا ومنطقتنا من منظارٍ تسلّطيٍّ استبداديٍّ احتلاليٍّ.

ولا نزال حتى اليوم -كعربٍ ومسلمين- نحصد ما زرعته هاتان الدولتان الاستعماريتان في منطقتنا، حيث كانت مصلحتهما هي الأولويّة في هذا المضمار، دون أيّ اعتبار للمصلحة العربيّة والإسلاميّة، إلا وفق ما تقتضيه مصلحتهما المشتركة.

الاستشراق العسكري الفرنسي

سنتناول في هذا العنوان ثلاثة رموزٍ، كان لهم، ولا شك، دورهم العسكري على منطقتنا العربية؛ مع العلم أن الكثيرين من، أبناء شعبنا لا يعلم عنهم وعن دورهم شيئًا، فضلاً عن أسمائهم التي لم تطرق أسماع بعضهم أيضًا.

هؤلاء الرموز الثلاثة هم:

1- لويس دي بوديكور (Louis de Beaudicourt)

2- لويس ماسينيون (Louis Massignon)

3- ليفي بروفنصال (Evariste Levi - Provençal)

(١) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

فمن هو لويس دي بوديكور (1815-1882) [1]؟

ولـد لويـس دي بوديكـور في باريـس سـنة 1815، مـن أبٍ يدعـى بروسـبير (Prosper)، يعمـل في تجـارة جمـع الطوابـع وبيعهـا. وهـو مـن منـاصري حـزب الملكيـين الشرعيـين (آل بوربـون).

وبعـد أن شـبّ لويـس ورث عـن والـده حبّـه للتجـارة فأصبـح رجـل أعـمالٍ، كـما ورث عنـه ميلـه السـياسيّ فنـاصر حـزب الملكيـين الشرعيـين، وإن لم يكـن بوسـعه تعاطـي السياسـة علنًـا كـون الحكـم في تلـك الفـترة كان يضطهـد مؤيـدي الملكيـة، فقـد نـذر نفسـه للأعـمال الاجتماعيـة والدينية-كـما يقـول- فـكان يؤسّـس الجمعيـة ويرعاهـا حتـى تزدهـر ومـن ثَـمّ يتركهـا في عهـدة أشـخاصٍ أكفّـاءَ، لينتقـل بعدهـا إلى تأسـيس جمعيـةٍ أخـرى تكـون الظـروف المسـتجدة قـد اسـتدعت قيامها-بنظـر موجهيـه ومؤيديـه-.

أسّـس أوّلاً في شـارع (فرنـوي) (Verneuil) أوّل تجمـعٍ كاثوليـكيٍّ ملـكيٍّ دعـاه «**المعهـد الكاثوليكيّـة**» (Institut Catholique)، وكان يطمـح مـن خـلال مؤسسـته هـذه إلى قلـب مفاهيـم الثـورة الفرنسـية مـن الوجهـة الدينيـة... ثـم مـا لبـث أن دمـج مؤسسـته بمؤسسـةٍ أخـرى لهـا الأهـداف نفسـها وتدعـى «**النـادي الكاثوليـكي**» بغيـة توحيـد القـوى. ثـم انتقـل بعدهـا إلى الانخـراط في صفـوف «**جمعيـة القديـس منصـور دوبـول**» الملقـب «**أبـو الأمـة**»، وكان اسـمها «**جمعيـة الرسـالة**» (وهـي جمعيـة الآبـاء اللعازريـين للتبشـير الهـادف للسـيطرة الدينيـة والسياسـية والاقتصاديـة - وهـو مـا تؤكـده مجلتهـم المسـماة «**الرعيـة الجديـدة**»[2]. وسـافر إلى أوروبـا للحصـول مـن الحـبر الأعظـم عـلى الإنعامـات التـي تسـبغ عـادةً عـلى المؤسسـات الدينيـة في بدايـة انطلاقتهـا، كدليـل موافقـة الفاتيـكان عـلى شرعيتهـا.

---

(١) راجع في هذا الإطار كتاب: Louis de beaudicourt. La france au Liban. Paris 1879
وقد ترجم إلى اللغة العربية من قبل كرم جوزف أنطون، تقديم د. جوزف أبو نهرا بعنوان: «دور فرنسا في لبنان» لويس دي بوديكور. بيروت ١٩٨٢. دون تحديد دار النشر.

(٢) راجع مجلة «الرعية الجديدة» (للآباء اللعازريين). العدد ١٧٨. رومية- لبنان أيار/ مايو ١٩٨٢. ص ٢٨ - ٢٩. وكتابنا الذي هو بعنوان «التبشير وأثره في جبل لبنان». كتاب «رسالة الجهاد». رقم ٩. مالطا. الطبعة الأولى ك١ ١٩٨٦. ص ١٥ - ١٧.

في هـذا الوقـت كانـت أخبـار الـصراع الدمـوي بـين الفرنسـيين والعـرب في الجزائـر تتصاعـد حدّتهـا. وباعتبـاره كان عـلى علاقـةٍ وثيقةٍ بسياسـيين وعسـكريين فرنسـيين، وجـد نفسـه أنـه مدعـوٌّ للقيـام بـدورٍ مـا في هـذه «**المسـتعمرة**» يكـون موازيًـا لـدور البندقيـة والمدفـع والجيـش الفرنـسي. بمعنـى أن يقـوم بـدورٍ «**سـلميٍّ**» لخدمـة الاسـتعمار الفرنـسي بـدلاً مـن سياسـة الحديـد والنـار -أو بالأحـرى إلى جانبهـا-.

عـلى هـذا الأسـاس سـافر إلى الجزائـر، واسـتقر بجـوار قريـة «**بليـدة**» حيـث أسّـس مسـتعمرةً كاثوليكيـةً صغـيرةً يقتـصر دورهـا عـلى تبشـير عـرب الجـوار بالديانـة الكاثوليكيـة. واسـتقدم إليهـا مبشريـن مـن «**رهبانيـة مريـم**»؛ وكثـيراً مـا كان يرافقـه ضبـاطٌ فرنسـيون وحـرسٌ مـن جنودهـم أثنـاء تجوالـه وتنقلاتـه التبشـيرية هـذه...

وأثنـاء وجـوده في الجزائـر وصلـت إلى مسـامعه أخبـار الفتنـة الطائفيـة البغيضـة بـين الموارنـة والـدروز في لبنـان (والتـي كان لفرنسـا في مـا بعـد الـدور الأول والأسـاس فيهـا بعـد الاتفـاق بـين قنصـل فرنسـا والمطـران المـاروني طوبيـا عـون عـلى تدبـير هـذه الفتنـة أثنـاء الاجتماعـات في ديـر عـين سـعادة بأنطليـاس، وفي إحـدى غرفـه المشـهورة بهـذه الحادثـة التـي ذكرهـا الدكتـور أسـد رسـتم للأسـتاذ كـمال جنبـلاط أثنـاء زيـارة كانـا يقومـان بهـا إلى هـذا الديـر)[1]، فتأسّـف «**لمعانـاة**» الموارنة-كـما قـال- وبـدأ يفكـر في إيجـاد حـلٍّ لهـم، فـكان مشروعـه واقتراحـه السـياسي والعسـكري «**القـاضي بتوطـين الموارنـة في الجزائـر**». ولم يكـن هـذا الاقتراح-المـشروع إلا نتيجـةً للتباحـث والتشـاور مع بعض المسـؤولين السياسـيين والعسـكريين الفرنسـيين الذيـن يوثـق بهـم -كـما يقـول- خصوصًـا أولئـك الموجوديـن في مهمّتهـم السياسـيّة والعسـكرية في الجزائـر، إضافـةً إلى بعـض الزعـماء الموارنـة مـن اللبنانيـين.

وخلاصـة مـشروع دي بوديكـور تتلخّـص بنظرتـه إلى هـذا الأمـر عـلى الوجـه التـالي: إذا نجـح في توطـين الموارنـة في الجزائـر يكـون قـد سـاهم في حـل

(١) أُنظر: كمال جنبلاط «حقيقة الثورة اللبنانية». المركز الوطني للمعلومات والدراسات الدار التقدمية. بيروت - المختارة. الطبعة الرابعة آذار/ مارس ١٩٨٧. ص ٧٥.

مشـكلتين عويصتـين: الأولى مشـكلة الموارنـة، إذ يصبحـون تحـت حمايـة فرنسـا المبـاشرة في الجزائـر وينصرفـون إلى الأعـمال الزراعيـة التـي يبرعـون فيهـا، والثانيـة مشـكلة فرنسـا في الجزائـر، إذ يصبـح الموارنـة الرديـف العسـكري للفرنسـيين فيهـا ويحاربـون إلى جانبهـم. وكونهـم يتكلّمـون اللغـة العربيـة فإنّهـم سـيتمكنون مـن التفاهـم مـع الجزائريـين ولعـب دور الوسـيط لتقريـب وجهـات النظـر بـين الجزائريـين والفرنسـيين لمصلحـة الاسـتعمار الفرنـسي. ولم يكـن لويـس دي بوديكـور وحيـدًا في السـعي لتحقيـق هـذا المـشروع، بـل كان إلى جانبـه «**الـدوق دومـال**» (Duc d'Aumale) الحاكـم الفرنـسي في الجزائـر بالإضافـة إلى الأب لويـس زويـن (موفـد مطرانيـة صيـدا المارونيـة إلى فرنسـا أثنـاء أحـداث 1860)، والشـيخ مرعـي الدحـداح (الـذي كان يقطـن فرنسـا متخـذًا مـن التجـارة مهنـةً لـه)[1]، الـذي أصبـح رئيسًـا لشركـة «**إفريقيـا والـشرق**» التـي أسّسـها لويـس دي بوديكـور لتحقيـق هدفـين: الأوّل تجـاريٌّ ويرمـي إلى إقامـة توظيفـاتٍ عقاريـةٍ في إفريقيـا، والثـاني تخصيـص أربـاح هـذه الشركـة مـن أجـل دعـم اسـتعمار المسـيحيين الكاثوليـك لإفريقيـا وتوطـين الموارنـة في الجزائـر.

وبقـي هـذا المـشروع دون تحقيـقٍ نظـرًا لمعارضـة الحكومـة الفرنسـية لـه. وأمـام هـذا الواقـع الجديـد سـافر دي بوديكـور إلى لبنـان ليكـرّس حياتـه وأعمالـه لمعاضـدة الموارنـة، وأصبـح الأمـين العـام «**لجمعيـة القديـس لويس**» في لبنـان[2].

والواقـع، أن لويـس دي بوديكـور كان يتسـترّ بالطابـع الدينـي لمهمتـه، بيـد أن كتابـه «**تاريـخ الجزائـر**» الـذي صـدر عـام 1860، ينسـف جميـع ادعـاءات دي بوديكـور هـذه، مفصحًـا عـن الـدور السـياسي والعسـكري لمهمتـه، وينمحـي عندهـا الشـعور الدينـي كليًّـا. فهـو عندمـا يتكلـم عـن توطـين الموارنـة في الجزائـر، فإنـه يريـد ذلـك -كـما يعـترف- كي يحافـظ عـلى الوجـود الفرنـسي فيهـا، بجعلهـم يشـكّلون نوعًـا مـن التجمعـات «**الفلاحيـة العسـكرية**» تفصـل بـين المسـتوطنات الفرنسـية في الجزائـر وبـين الجزائريـين (عـلى غـرار المسـتعمرات

(١) راجع: مجلة «النهار العربي الدولي» العـدد ٢٤٥ سنة ١٩٨٢ في مقالٍ بعنوان: «تـوطين موارنة لبنان في الجزائر» تحقيق سركيس أبو زيد ومنير مخلوف. ولويس دي بوديكور «دور فرنسا في لبنان» ترجمة كرم جوزف انطون. ص ٩.

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها. وكذلك
M. Prevost et R. d'Amat-Dictionnaire de biographie française.Tome 5. Paris 1951. Q.V.

الصهيونيـة اليـوم في فلسـطين). إذًا فهـو يريـد اسـتخدامهم درعًـا واقيـةً للوجـود الفرنـسي في الجزائـر. ونلاحـظ بالتـالي تحـوُّلًا في نظـرة «**دي بوديكـور**» مـن منطلـقٍ دينـيٍّ إلى منطلـق قومـيٍّ اسـتعماريٍّ ذي بُعـدٍ عسـكريٍّ فرنـسيٍّ ويخـدم مصلحتـه.

والأخطـر مـن ذلـك، لقـد تعـدّت غـيرة وحماسـة «**دي بوديكـور**» عـلى موارنـة جبـل لبنـان لتشـمل جميـع مسـيحيّي الـشرق، داعيًـا فرنسـا إلى إنشـاء محميّـةٍ لهـا في سـوريا كلهـا بهـدف جعلهـا نقطـة ارتـكازٍ لبسـط نفوذهـا عـلى العـرب مـن جهـةٍ وعـلى الأتـراك مـن جهـةٍ أخـرى[1]... وتحقّـق الجـزء الأكـبر مـن هـذا المـشروع بعـد الحـرب العالميـة الأولى وإخضـاع سـوريا ولبنـان (بعـد ولادتهـما اسـتعماريًّا) للسـيطرة الفرنسـية.

هـذا، ومهـما حـاول «**لويـس دي بوديكـور**» أن يتلطّـى بالسـتار الدينـي لمهمتـه السياسـية والعسـكرية،فإنه يبقـى عاجـزًا عـن ذلـك، حيـث إن مؤلفاتـه المعـبّرة عـن طبيعـة مهمتـه وحقيقتهـا، لا تسـتطيع إلاّ أن تديـن مؤلّفهـا نفسـه؛ ولعـلّ عناويـن هـذه المؤلفـات تشـير إلى هـذه الحقيقـة، ومنهـا مثـلًا: «**المواطنـون في الجزائـر**» الـذي صـدر سـنة1852؛ و«**الحـرب في الجزائـر**» الـذي صدر سـنة 1853 و«**اسـتعمار الجزائـر**» الـذي صـدر سـنة 1856؛ و«**تاريـخ مسـتعمرة الجزائـر**» الـذي صـدر سـنة 1860؛ و«**فرنسـا في سـوريا**» الـذي صـدر سـنة 1860؛ وكتابـه الشـهير «**فرنسـا في لبنـان**» الـذي نـشر في باريـس عـام 1879... وقـد تـوفي لويـس دي بوديكـور عـن عمـرٍ يناهـز الثمانيـة والسـتين عامًـا، ودفـن في باريـس بتاريـخ 15 أيـار/ مايـو 1882.

لويس ماسينيون (1883 - 1962)

يختلـف لويـس ماسـينيون عـن لويـس دي بوديكـور في اسـتشراقه، إذ لم يكـن ماسـينيون بحاجـةٍ إلى «**سـتار**» يتخفّـى وراءه كـما فعـل سـلفه وابـن وطنـه. لقـد بـدأ ماسـينيون حياتـه الاسـتشراقية باشـتراكه في المؤتمـر الـدولي الرابـع عـشر للمسـتشرقين الـذي انعقـد في نيسـان/ أبريـل سـنة 1905 في الجزائـر. وهنـاك تعـرّف إلى المسـتشرق اليهـودي المجـري «**غولدتسـيهر**» الـذي كان في طليعـة

(١) لويس دي بوديكور «دور فرنسا في لبنان»... ص ٢٦.

الذيـن أقامـوا الجامعـة العبريـة سـنة 1919، تلـك الجامعـة التـي كانـت الدعامـة الأولى في الغـزو الصهيـوني الاسـتيطاني لفلسـطين[1]. وكان لغولدتسـيهر تأثـيرٌ كبـيرٌ - عـلى مـا يبـدو - في آراء وتوجهـات ماسـينيون الاسـتشراقية.

ثـمّ التقـى بغولدتسـيهر أثنـاء اشـتراكه في مؤتمـر المسـتشرقين الخامـس عـشر في كوبنهاغـن. وحـضر دروسًـا في الجامـع الأزهـر في مـصر كـما فعـل غولدتسـيهر مـن قبـل ١٨٧٣ - ١٨٧٤. ولمّـا طُلـب إلى غولدتسـيهر وأسـنوك هورخرونيـه القيـام بالتدريـس في الجامعـة المصريـة القديمـة التـي أنشـئت سـنة ١٩١٠، اعتـذرا وأوصيـا بالأسـتاذ ماسـينيون لهـذا المنصـب (كدليـلٍ على العلاقـة الوثيقـة التـي تربطهـم ببعـض فضـلاً عـن بعـض القناعـات والأهـداف المشـتركة)؛ فدُعـي ماسـينيون وألقـى أربعـين محـاضرةً باللّغـة العربيـة عـلى طـلاب الجامعـة المصريـة - وكان منهـم الدكتـور طـه حسـين الـذي تأثّـر بـه كثـيراً عـلى مـا يبـدو. وكان كتابـه «**مسـتقبل الثقافـة في مـصر**» دليـلاً واضحًـا عـلى ذلـك، حيـث يدعـو فيـه إلى «**القوميـة المصريـة**» وسـلخ مـصر عـن عروبتهـا؛ وقـد جـرت حملـةٌ كبـيرةٌ بسـببه في الصحـف والمجـلات العربيـة بينـه وبـين المفكـر العـربي الكبـير سـاطع الحـصري، ومـن المرجّـح أنـه عـلى أسـاس هـذه العلاقـة «**سـاهم ماسـينيون في دائـرة المعـارف الإسـلامية**»[2]، التي يكـثر فيهـا الـدس والتشـويه والافـتراءات ضـد العـرب والإسـلام. ومنذ السـابع والعشريـن مـن شـهر آذار/ مـارس ١٩١٧، أصبـح ماسـينيون تحـت تـصرّف وزارة الخارجيـة الفرنسـية بوصفـه ضابطًـا ملحقًـا بمكتـب المنـدوب السـامي الفرنـسي في سـوريا ولبنـان. وكان ضمـن الجيـش الـذي دخـل القـدس في عـام ١٩١٧ تحـت قيـادة الجـنرال ألنْبـي العليـا[3]، حيـث صرح ألنْبـي إثرهـا بقولـه: «**اليـوم انتهـت الحـروب الصليبيـة**».

وفي شـهر كانـون الاول/ ديسـمبر 1919، كُلـف لويـس ماسـينيون بمهمـةٍ مـن

(١) راجع: جريدة «الدعـوة الإسلامية» تاريـخ ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨. ص ٤. (مقـال حول الاستشراق» للأستاذ خليل حسّونة).

(٢) راجع: د. عبد الرحمن بدوي «موسوعة المستشرقين». ص ٣٦٧. ومصطفى نصر المسلاتي «الاستشراق السياسي» ص ٢٦٧.

(٣) أُنظر: د. ميشال جحا «الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا». ص ٢٨٤.

قبل وزارة الشؤون الخارجية للاستقصاء عن الدستور السوري[1]. ولقد كلفه بهذه المهمة وزير الخارجية الفرنسي شخصيًّا آريستيد برياند (Aristide Briand) وكان قد التقى أيضًا بالجاسوس البريطاني الشهير، عالم الآثار، زميله في المهنة، لورنس العرب[2]. كما كُلف بمهمةٍ أخرى في عاميْ 1923 - 1924، بإجراء تحقيقٍ حول الطوائف في المغرب[3].

ويشير د. عبد الرحمن بدوي إلى أن جانبين أساسيين في فكر ماسينيون، لا نستطيع إلا أن نشير إليهما بإيجازٍ (وقد جاء ذلك في معرض المدح): **الأول:** دراسة تراث العرب العلمي وقد كتب عنه فصلاً في كتاب «**تاريخ العلم**» الذي أصدره الناشر: «**المطابع الجامعية الفرنسية**» سنة 1957. وكان آخر بحثٍ تلقيناه منه قبيل وفاته بأيامٍ قليلةٍ هو عن «**غيوم ماجلان واكتشاف العرب لها**»، وفيه أثبت أن العرب قد عرفوا غيوم ماجلان، وهي الكواكب التي اهتدى بها ماجلان لما دخل المحيط الهادي وبواسطتها استطاع أن يتم دورته حول الأرض، والملاحون العرب قد اكتشفوها من قبله بزمانٍ طويلٍ وكانوا يهتدون بها في الملاحة... أما الجانب الآخر فهو دراسة الأحوال الاجتماعية والأنظمة الاجتماعية في العالم الإسلامي على مر العصور[4].

ولا يسعنا هنا إلاّ أن نشير إلى ما أكّده المستشرق ريترّ (Ritter) بقوله: «**إن الغرب في أشد الحاجة إلى مجهوداتٍ علميةٍ أكثرَ تركيزًا تجاه دول العالم الثالث عامةً والشرق الأدنى خاصةً. وإن الذي لا يختلف عليه اثنان هو أن نظرة الغرب إلى الشرق، بل وأحداث الشرق الأوسط لا تخلو من نياتٍ وخطط المستشرقين**»[5].

فما معنى إذًا أن يُكلَّف لويس ماسينيون من قِبل وزارة الخارجية الفرنسية بالاستقصاء عن الدستور السوري 1919 وحكومة الأمير فيصل العربية، في الوقت الذي كانت فيه اتفاقية سايكسبيكو الاستعمارية الصهيونية، ومن

---

(١) أُنظر: جان ماريّون «لويس ماسينيون». ترجمة منى النجار. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ص ٧. كذلك: Jean Marillon, «Louis Massignon». Paris 1964. Introduction

(٢) راجع: مجلة «الفكر العربي». العدد ٣١. ص ٣٦٠.

(٣) أنظر: جان ماريون. المرجع السابق. ص ٧.

(٤) د. عبد الرحمن بدوي. «موسوعة المستشرقين». المرجع السابق نفسه. ص ٣٦٧.

(٥) راجع: مصطفى نصر المسلاتي. ص ٤.

بعدها عملية فرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان وتوزيع الانتدابات على الدول العربية؟؛ إذ من المؤكد أن مهمة ماسينيون هذه لم تكن مهمةً «**إنسانيةً**» على الإطلاق، وليست في مصلحة الشعب العربي السوري واللبناني خصوصًا، بل هي جزءٌ من مهمة «**رصد واستطلاع ووضع خططٍ**» ضروريةٍ للاستعمار الفرنسي قبل مباشرة وضع يده وإمكاناته على هذه المنطقة.

وإن الدارس المدقق سيكتشف هول الصدمة التي ستواجهه عندما يغرق في بحور الإطراء والمديح الذي يغدقه المستشرقون على ماضي الإسلام وحضارته وبناء أسسه الأولى، إذ اعتمد بعضهم منهج البناء والهدم في وقتٍ واحدٍ. وليس المدح إلا مظهرًا خادعًا لما يريد الوصول إليه... ذلك أن القضية لا تستمر على هذا النسق من التحليل والإطراء، لأن ما بناه لن يستمر طويلاً، إلا ويتبعه بمنهجٍ آخرَ هو منهج «**الهدم**»... فيهدم ما بناه ويسقطه لبنةً لبنةً، وهكذا. ولكي نوضّح هذه القضية الخطيرة نورد ما قاله المستشرق: «**غوستاف فون غرونباوم**» (Gustav Von Grunebaum) وهو يتحدث عن قبول العرب للدين الجديد.

١- إن نظامه الديني من أشد النظم والديانات إحكامًا وأعظمها توافُقًا وتماسُكًا.

٢- كان هذا النظام ينطوي على أجوبةٍ مقنعةٍ للمسائل التي كانت تشغل مواطنيه، كما كان يتجاوب وروحَ العصر.

٣ - إنه رفع العالم الناطق بالعربية إلى مستوى العوالم الأخرى، ذات الكتب المنزلة[1].

كل ما سبق يوحي أن غرونباوم ينهج منهجًا موضوعيًّا إلى حدٍّ ما بحيث يمكن أن نقول: إنه يقترب من الحقيقة. لكننا لن نذهب بعيدًا، وسنرى بعد ذلك أنه يهدم كل ما بناه للوصول إلى غرضه وأهدافه الأساسية، فها هو يقول: «**كان الهواء يفوح بالزهد، وكان الزّهّاد يحرمون الخمر، ويستحبّون الاعتدال الجنسي. وكما حدث في الإسلام بعد ذلك، فالراجح أن العناصر**

(١) راجع: غوستاف فون غرونباوم «حضارة الإسلام» ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة. دار مصر للطباعة ١٩٥٦. ص ٩٨. ومصطفى المسلاتي... ص٤١ - ٤٢.

المسيحية غلبت اليهودية في تكوين وجهات نظرهم وسننهم، ولكن العربي الذي كان يبحث عن الصدق، لم يكن يعنيه كثيراً ممن كان يأخذ آراءه الدينية التي يستولي عليها. ذلك أن حرمانه من كل ميراثٍ قوميٍّ أجبره على الأخذ من مختلف العقائد»[1].

وبالمنظار نفسه، رأى الدكتور عمر فروخ ذلك المديح والإِطراء، وقد وصفه ب «**المخدّر المضرّ**»، مؤكِّدًا ذلك بقوله «**لقد مرّ الزمن الذي كان يجوز فيه للعرب أن يسكروا بخمرٍ يعصرها غيرهم. ولعل كثيراً من جُمل الإِطراء والمديح للعرب قد قصد بها أصحابها إلهاء العرب عن حقيقة مركزهم وتركهم في غمرةٍ من هذا الخيال التائه. ولقد عرفت أنا ذلك من جُمَلٍ قالها غربيون لا وزن علميًا لهم، فجاءت جملهم بديعةً في سبكها ولكنها بعيدةٌ عن الصحة والصواب»**[2].

هكذا هو حال المستشرق لويس ماسينيون الذي «**صال وجال على مسرح الشرق الإسلامي، واتخذ من معرفته الواسعة وعمله مادةً لخدمة الاستعمار الفرنسي في الشرق العربي والإسلامي -(وبالتالي لخدمة الصهيونية التي ورثت هذه التركة)- منذ سنة 1920؛ حيث أوكلتِ له بعد الحرب العالمية الأولى مهمةٌ استعماريةٌ كبرى لترغيب المسلمين في سوريا ولبنان في الاستعمار الفرنسي وفق تدابير الاحتلال»**[3].

وليس أدل على ذلك من اعتراف ماسينيون نفسه حول العلاقات بين الاستشراق والاستعمار، عندما قال: «**أنا نفسي كنت متحمِّسًا لعملية الاستعمار في ذلك الحين، وقد كتبت له لكي أُعرب عن أملي بفتحٍ قريبٍ للمغرب بقوّة السلاح، وقد أجابني بالموافقة؛ ولنعترف بأن المغرب كان في ذلك الحين يعاني من وضعٍ رهيبٍ. لكن خمسين عامًا من الاحتلال ما كان لها بدون «ليوتي»** وبدون مثله الأعلى الفرنجي -الإسلامي، أن تسفر عن شيءٍ يُذكر[4].

(١) غوستاف فون غرونباوم. المرجع السابق. ص ١٠٠ - ٩٩. والمسلاتي.ص ٤٢.

(٢) أُنظر: عمر فروخ «عبقرية العرب في العلم والفلسفة». ص ٢٤ - ٢٣.

(٣) راجع: محمد صالح يونس «الغزو الثقافي سلاح الصهيونية والصليبيّة الجديدة». كتاب رسالة الجهاد ص ٢٠ - ١٩. كذلك: خليل حسونة في مقاله عن الاستشراق، نشر في جديدة «الدعوة الإسلامية»، ٢٨ أيلول / سبتمبر ١٩٨٨. ص٤.

(٤) أُنظر: لويس ماسينيون «فوكو في الصحراء أمام إله إبراهيم وهاجر وإسماعيل». أيام الثلاثاء في دار السلام ١٩٥٩. ص ٩٥. (بالفرنسية). كذلك: مجلة «الفكر العربي» العدد ٣١. ص ٩٤.

ومـن المنطلـق الاسـتعماري ذاتـه، والعـداء للعـرب (بحجـة محبتهـم) يدعـو ماسـينيون للمصالحـة بـين العـرب وإسرائيـل، أو كـما يسـميهم «**بـين الأشـقاء**»، بقولـه: «**... أرى أن عـلى الأشـقاء أن يجـدوا سـبيلًا للمصالحـة. إذ إن كلا الفريقين، إسرائيـل والعـرب، يملـك شـهادةً داخليـةً لـلإدلاء بهـا: إنهـا شـهادة لغتهـما التـي هـي لغـةٌ مقدسـةٌ، فضـلًا عـن أنهـا أداةُ بحـثٍ علمـيٍّ مجـردٍ. لقـد كتبـت النخبـة اليهوديـة وفكّـرت باللغـة العربيـة خـلال العصـور الوسـطى بكاملهـا. هنـا تكمـن المشـكلة الجوهريـة**»[1].

وأثنـاء مرحلـة الانتـداب الفرنـسي عـلى سـوريا ولبنـان، وبالتحديـد في مرحلـة الثلاثينـات مـن القـرن العشريـن، عقـد لويـس ماسـينيون سلسـلةً مـن النـدوات في بـيروت، أثـار بعدهـا ردّة فعـل الكثيريـن، ومنهـم د. عمـر فـروخ الـذي قـال: «**مـاذا يفعـل هـذا الرجـل هنـا؟ وأيـن يحـشر أنفـه؟**»[2]، وذلـك بعـد أن هاجـم الإسـلام والعـرب في عقـر دارهـم -كـما يقولـون- مسـتقويًا بجيـش دولتـه مـن ناحيـةٍ، وبموقعـه في عـالم الفكـر والاسـتشراق مـن ناحيـةٍ ثانيـةٍ.

ومجمـل القـول، أن ماسـينيون «**مـؤرخ الفكـر**» (لاهتمامـه بالتاريـخ العقـدي والفكـري للإسـلام) عمـل في الـشرق المعـاصر وأثّـر في سياسـات دولتـه (فرنسـا) في التعامـل مـع هـذا المـشرق»[3]. ولـو لم يكـن «**موظَّفًـا**» لـدى وزارة خارجيتـه وموظفًـا نشـيطًا وأمينًـا لهـا، ولـو لم يكـن أحـد جنـود (بـل ضبـاط) السياسـة الفرنسـية في هـذه المنطقـة وخادمهـا المطيـع، لكانـت النخبـة مـن شـعبنا العـربي قـد ذكرتـه بالخـير -عـلى الأقـل- لأن الوفـاء هـو مـن أولى عاداتنـا، ولا نتذكّـر مـرّةً أننـا قصّرنـا في هـذا الواجـب مـع مـن يسـتحقّه.

ويكفـي في هـذا المجـال، أن نشـير إلى واقعتـين تتعلقـان مبـاشرةً بمهمـة لويـس ماسـينيون في بلادنـا، بـل كان لـه الـدور الفعـال في هاتـين الواقعتـين اللتـين، لا تختـصران مهمـة ماسـينيون فقـط، بـل مهمّـة كل مـن خطـا خطواتـه في «**علـم الاسـتشراق**». وخلاصـة هاتـين الحادثتـين، هـي أنـه لـولا الأعـمال

(١) جاك بيرك ولويس ماسينيون «حوار حول العرب» مجلة (اسبري٢٨) (فكر٢٨). العدد ٢٨٨. سنة١٩٦٠. ص ١٥٠٦ (بالفرنسية)
J. BerQue ct L. Massignon. dialogue sur les arabes. Esprit XXVIII. 1960. N° 288. P P. 1506

(٢) د. أديب عامر في مقال له بمجلة «الفكر العربي» العدد ٣١. ص ٣٥١.

(٣) د. رضوان السيّد في افتتاحيّة لمجلة «الفكر العربي»، العدد ٣١. ص ٥.

الاستشراقية التي زعمت أنها «**بريئةٌ**»، وغُلّفت بالطابع العلمي والأكاديمي، لما وصل الجنرالات الفرنسيون والإنجليز إلى القول في بلادنا -وفي قلبها بالتحديد- (في نفس الوقت الذي كان فيه المستشرق ماسينيون مكلَّفًا بمهمة «**البحث والاستقصاء**»)، ما لا يتجرّأ أيُّ مستشرقٍ على قوله، أو البَوْح عنه، حتى ولو كان من وزن ماسينيون وأهميته. وهذا ما عبّر عنه الجنرال غورو، أمام قبر البطل الكبير صلاح الدين الأيوبي في دمشق، بكل تهكّمٍ وازدراءٍ، قائلاً: ها نحن عدنا يا صلاح الدين. كذلك الحال بالنسبة للجنرال ألنبي بعدما دخل إلى القدس وقال: اليوم انتهت الحروب الصليبية!!

أليس في ذلك روح العنصرية الصليبية وعمودها الفقري؟ وهل يمكن أن ننكر، بعد كل هذا، أن الإستشراق لم يكن إلا السلاح الأمضى والأفتك في أيدي رجال الحرب والسياسة الاستعمارية تجاه شعبنا ووطننا؟

ليفي بروفنصال (1894 - 1956)

مستشرقٌ فرنسيٌّ اشتهر بأبحاثه في تاريخ المسلمين في إسبانيا. ولد في مدينة الجزائر العاصمة سنة 1894 من أسرةٍ يهوديةٍ. تعلّم في ليسيه قسنطينة في الجزائر، ثم دخل كليّة الآداب في الجامعة حيث نال فيها الليسانس سنة 1913، وقد تتلمذ على رينيه باسّي (René Basset) وجيروم كركو بينو الشهير بأبحاثه في التاريخ الروماني. وتردّد بين اتجاهي هذين الأستاذين: الدراسات العربية والدراسات الرومانية.

بعد سنةٍ واحدةٍ على تخرّجه ونيله الليسانس في الآداب، نشبت الحرب العالمية الأولى، فالتحق بالجيش الفرنسي في الشرق، وجرح في معركة الدردنيل الشهيرة، فأرسل إلى مدينة الإسكندرية بمصر للعلاج من جراحه. فلمّا شفي منها عاد إلى فرنسا، ثم «**أرسل إلى مراكش ضابطًا في الشؤون الإسلاميّة**»[1]، حيث «**عُهد إليه بقيادة موقعٍ في وادي ورجلة بالقرب من حدود الريف في المغرب، فكان لهذا أثره الحاسم في تحديد اتجاهه، إذ اختار الدراسات العربية نهائيًّا**»[2].

(١) أُنظر: نجيب العقيقي «المستشرقون» طبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٧. ص ٧٠.

(٢) راجع: د. عبد الرحمن بدوي «موسوعة المستشرقين». ص ٣٥٤

ونظـرًا لأهميتـه في هـذا الميـدان، فقـد احتـلّ ليفـي بروفنصـال مكانـةً محترمـةً في نفـوس كبـار السياسـيّين والعسـكريين الفرنسـيين، خصوصًـا مـن كانـت خدمتـه منهـم «**ميدانيـةً**» وفي المغـرب العـربي تحديـدًا. وعـلى هـذا الأسـاس، كلّفـه المارشـال «**ليـوتي**» -القائـد العـام- بمهمـةٍ في معهـد الدراسـات العليـا المراكشـية في الرّبـاط، وعُـيِّن أسـتاذًا فيـه سـنة 1920، ثـم مديـرًا لـه سـنة 1926، فأقـام في وظيفتـه حتـى العـام 1935، وكان قـد قـدّم رسـالتين للحصـول عـلى دكتـوراه الدولـة، وُفّـق فيهـما وحصـل عـلى شـهادته تلـك سـنة 1922. وكانـت هاتـان الرسـالتان بعنـوان:

الأولى: مؤرّخـو الشرفـاء: بحـث في كتـب التاريـخ والسـير في مراكـش مـن القـرن السـادس عـشر إلى القـرن التاسـع عـشر.

الثانية: نصوصٌ عربيةٌ من ورغة: لهجة جبالا (في شمال مراكش) [1].

وليـس مـن الصدفـة أبـدًا أن يكلـف بروفنصـال (عسـكريًّا مـن قبـل المارشـال ليـوتي) لإعـداد مثـل هـذه الأبحـاث المتعلقـة ب «**اللهجـات العربيـة**» كضربـةٍ أولى للّغـة العربيـة الفصحـى، بغيـة زعزعـة أركانهـا وخلخلـة بنيانهـا مـن ناحيـةٍ، ولإحـداث شرخٍ كبـيرٍ بـين أبنائهـا عـبر هـذه الطريقـة مـن ناحيـةٍ ثانيـةٍ، ولـزرع الشـك في نفـوس المسـلمين ولغتهـم القرآنيـة مـن ناحيـةٍ ثالثـة.

واتسـع اهتـمام بروفنصـال بمراكـش ولهجتهـا، ومـا لَبـث أن شـمل إسـبانيا الإسـلامية كلِّهـا، لأنّـه أدرك أنـه لا يمكـن الفصـل بـين تاريـخ المغـرب وتاريـخ إسـبانيا الإسـلامية. وابتـداءً مـن سـنة 1928 وجّـه عنايتـه إلى تاريـخ المسـلمين في إسـبانيا، موجِّهًـا اهتمامـه أساسًـا إلى النُّظُـم والحيـاة الاجتماعيـة، كـما أولى مـن الاهتـمام بالأحـداث التاريخيـة السياسـية، وفقًـا لمطالـب الاسـتعمار وحاجتـه.

وفي سـنة 1935 اسـتعفى مـن إدارة معهـد الربـاط ليتفـرّغ للتدريـس والتأليـف، فعُـيّن مديـر شرفٍ لـه. وفي سـنة 1938 دعتـه جامعـة فـؤاد الأول بمـصر أسـتاذًا زائـرًا وعينتـه في اللجنـة المكلفـة بتحقيـق كتـاب الذخـيرة لابـن بسـام. وفي سـنة 1939 جُنّـد في القيـادة العليـا لإفريقيـا الشـمالية في الحـرب العالميـة الثانيـة، وأطلـق في منتصـف العـام 1940 ثـم أحالتـه حكومـة فيـشي عـلى المعـاش فعـاد إلى التدريـس.

(١) أُنظر للتوسع في الموضوع: د. عبد الرحمن بدوي. المرجع نفسه. والصفحة نفسها. ونجيب العقيقي. المرجع نفسه. ص ٧١ - ٧٠.

ومـن سـنة 1943 إلى سـنة 1944، انتدبتـه حكومـة الجمهوريـة الفرنسـية في مهـمّات خطـيرةٍ بـين لنـدن والقاهـرة والقـدس ودمشـق؛ وفي سـنة 1945 ألحقـه وزيـر التربيـة الفرنسـية بديوانـه في باريـس، وعـينّ في السـنة ذاتهـا أسـتاذًا للغـة العربيـة والحضـارة الإسـلامية في كليـة الآداب بباريـس (السـوربون)، وبقـي في هـذا المنصـب حتـى وفاتـه سـنة 1956. كـما عُـينّ أيضًـا وكيـلاً لمعهد الدراسـات الشرقيـة المعـاصرة، ومديـرًا لمعهـد الدراسـات السّـاميّة في جامعـة باريـس. ولم يقتـصر جهـده عـلى التدريـس والإدارة، فقـد كان حتـى سـنة 1939 مديـر المطبعـة الفرنسـية لدائـرة المعـارف الإسـلامية.

وقـد كوفـئ عـلى بلائـه في الحـرب وجهـوده في الاسـتشراق بأوسـمةٍ رفيعـةٍ منهـا وسـام جوقـة الـشرف وعضويـة جمعيـاتٍ كثـيرةٍ منهـا مجمـع إسـبانيا، وجمعيـة إنجلـترا الآسـيوية[1].

والجديـر بالذكـر، أنّـه بعـد قيـام الحـرب العالميـة الثانيـة وهزيمـة فرنسـا في حزيـران/ يونيـو 1940، صـدرت في فرنسـا قوانـينُ ضـد اليهـود. لكـن بفضـل تدخّـل بعـض أصدقائـه -مـن سياسـيين وعسـكريين- في فرنسـا، أعفـي مـن تطبيـق هـذه القوانـين عليـه، وعُـينّ -اسـميًّا- أسـتاذًا في كليـة الآداب بجامعـة تولـوز (جنـوبي فرنسـا) في 1945. فأخـذ في تحريـر المجلـد الأول مـن كتابـه «**تاريـخ إسـبانيا الإسـلامية**» وهـو مـن أهـم أعـمال بروفنصـال -كـما يذكـر د. عبـد الرحمـن بـدوي- وقـد صـدر منـه ثلاثـة مجلـداتٍ تحـت عنـوان: (Histoire de l'Espagne Musulmane) (تاريـخ إسـبانيا الإسـلامية).

وفي سـنة 1954 أسـس مجلـة «**Arabica**» التـي أصبحـت أهـم مجلّـةٍ فرنسـيةٍ متخصّصـةٍ في الآداب العربيـة والعلـوم الإسـلامية[2]. فضـلاً عـن ذلـك، فقـد تـرك ليفـي بروفنصـال أكـثر مـن عشريـن مؤلَّفًـا تتنـاول الحضـارة العربيـة والإسـلام،[3] حيـث ترجـم بعضهـا إلى اللّغـة العربيـة كـما هـو الحـال بالنسـبة لكتـاب «**حضـارة العـرب في الأندلـس**».

(١) راجع: نجيب العقيقي. المرجع السابق نفسه. ص ٧١.
(٢) أُنظر: د. عبد الرحمن بدوي «موسوعة المستشرقين». ص ٣٥٥
(٣) راجع في هذا الصدد:
Régis Blachère, in Arabica, tome III, fase 2. P. 133 - 146, avec bibliographie.
ود. عبد الرحمن بدوي. «موسوعة المستشرقين» ص ٣٥٧ - ٣٥٥
ونجيب العقيقي «المستشرقون» طبعة ١٩٤٧. ص ٧٢ - ٧١.

وعلى الرغم من الدور البارز الذي قام به ليفي بروفنصال في خدمة السياسة الفرنسية وعسكريتها، ضد العرب والمسلمين، خصوصًا في المغرب العربي فقد ذكر د. ذوقان قرقوط، الذي ترجم كتاب «**حضارة العرب في الأندلس**» يقول: «**إن هذا الكتاب هو عرضٌ موجزٌ لحضارة العرب في الأندلس، وإبرازٌ نزيهٌ للروابط التي كانت تربط تلك الحضارة بالشرق العربي. كما فيه اعترافٌ صريحٌ لأثر الحضارة العربية عامّةً على الحضارة الغربية المعاصرة.**

يتقصّى المؤلف في بحثه هذا شخصية الحضارة العربية الإسبانية، ويبرز لها خواصَّها ببنائها الاجتماعي ومُثُلها الأخلاقية والثقافية وارتباطها الوثيق بالروح العربية الأصيلة، على الرغم من بعد المسافة واختلاف التربة والمناخ بين صحراء العرب وبلاد الأندلس».

ويضيف د. قرقوط قائلا: «**دامت الأندلس بعد العرب زعيمة الفكر والمدنية واحتفظت بكامل إشعاعها، ففتنت سادتها الجدد، وأضحت للغرب كما كانت أثينا لروما عندما غدت مقاطعةً في إمبراطوريّتها. فعلى الرغم من كونها مغلوبةً، نستطيع أن نقول بأنها استولت هي نفسها على قاهريها.**

ولم تقف الأندلس عند الاقتباس عن حضارة بغداد، بل أخذت تعمل على أن يشعّ نفوذها كأمّةٍ عظيمةٍ متمدّنةٍ إلى خارج حدودها... هذا ما يبيّنه المؤلف في هذا الكتاب، وهو أعمق من تعرض للحضارة الأندلسية، وأنزه من ذكر فضلها وغايتها»[1].

وتأكيدًا لذلك فقد كتب د. عبد المنعم ماجد في هذا الصدد:

إنّ المسلمين في الأندلس تركوا طابعًا إسلاميًّا لا يُمحى؛ وإنهم أسهموا بنصيبٍ وافرٍ في تقدّم الإنسانية، وإن الإسلام لم يكن مجرّدَ موجةٍ عابرةٍ فيها، وإنّما حركةً حضاريةً فعّاليةً تقدّميةً»[2].

ومهما يكن من أمر فليس باستطاعتنا أن نمنح «**صك براءة**» بمثل هذه البساطة لشخصيةٍ يهوديّةٍ مهمّةٍ من وزن ليفي بروفنصال، مع تأكيدنا بأن ما

(١) أُنظر: ليفي بروفنصال «حضارة العرب في الأندلس» ترجمة د. ذوقان قرقوط. مكتبة الحياة. بيروت. د. ت. صفحة الغلاف الأخير والمقدمة.

(٢) راجع: د. عبد المنعم ماجد «العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى»منشورات مكتبة الجامعة العربية. بيروت ١٩٦٦. ص ٢٥٨

«**خدم**» به حضارة العرب والإسلام لا يساوي نقطةً واحدةً في «**بحر خدماته**» السياسية والعسكرية والثقافية للإدارة الفرنسية والاستعمار بشكلٍ عامٍّ، وقد كان لبني قومه، ولا شك، نصيب من خدماته هذه، (مع اعترافنا ببعض إيجابيّاته البحثيّة).

الاستشراق العسكري البريطاني

لم يتفق الباحثون والمؤرخون والمستشرقون بالذات، على العدد الذي جندته إنجلترا لخدمة أغراضها السياسية والعسكرية في ميدان الاستشراق؛ لكنهم متفقون، ولا شك، من خلال إحصاءاتهم في هذا المجال، أن بريطانيا تحتل المرتبة الأولى من حيث عدد مستشرقيها الذين تبوّؤوا مناصبَ حسّاسةً في المضمار السياسي أو في القوات العسكرية، خصوصًا في الهند. ومصر، وفلسطين والجزيرة العربية، والعراق. ولم يكن ذلك ضروريًّا بالطبع، لولا استماتة التاج البريطاني في المحافظة على «**درّة التاج**» نفسه، والممثلة بالهند. وهذا ما يستلزم بدوره تأمين الطرق المؤدية إليها.

من هنا، يؤكد د. ميشال جحا بقوله: «**إنّ عددًا من مستشرقي هذا العصر كانوا ممن عملوا في السلك الدبلوماسي، أو ممن انخرطوا في سلك الجندية وعملوا في خدمة التاج البريطاني كضباطٍ أو كانوا أبناء ضباطٍ أو موظفين في وزارة المستعمرات البريطانية**»[1].

وبما أنه من الصعوبة الإحاطة بجميع هؤلاء، فإن من الممكن والضرورة أن نشير إلى نماذجَ من هذا النوع، أو بالأحرى عيّناتٍ تُلقي ضوءًا على ما نحن بصدده، خصوصًا وأن بعض هذه العيّنات كانت قد فاقت شهرتها حدود بلادها، وتجاوزتها إلى نطاقٍ دوليٍّ، حتى أن كثيراً من القرارات والأحداث ارتبطت بالشخصيات التي حركتها، أو كان لها تأثيرٌ وفعاليّةٌ في تحريكها، أو كونها كانت في مركز القرار والفعل معًا. ومن بين هؤلاء نذكر على سبيل المثال: إدوارد هنري بالمر (E.H. Palmer)، ولورنس العرب، وتشارلز هنري تشرشل (Ch. H. Churchill) ، إلخ...

(١) د. ميشال جحا «الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا». ص ٣٤.

إدوارد هنري بالمر (1840 - 1882)

ولـد بالمـر في كامـبردج سـنة 1840، وقتـل في مـصر سـنة 1882. وقـد وصفـه الدكتـور عبـد الرحمـن بـدوي في معـرض تعريفـه: «**مسـتشرقٌ انجليـزيٌّ ومـن عمـلاء الاسـتعمار البريطـاني؛ لقـي حتفـه جـزاءً وفاقًـا لعملـه هـذا**»[1].

تولَّـع منـذ طفولتـه بتعلّـم اللّغـات، وسـاعده في شـبابه أحـد موظفـي الحكومة الهنديـة ويُدعـى سـيد عبـد اللـه، فأفـاد منـه بـدروسٍ في اللّغـات الفارسـية والأورديـة والعربيـة. وفي الوقـت نفسـه تلقّـى دروسًـا في العربيـة عـلى يـدي سـوريٍّ مسـيحيٍّ يدعـى رزق اللـه حسّـون. وبعدهـا دخـل جامعـة كمـبردج. كان يتقـن عـددًا مـن اللّغـات الشرقيـة، أكسـبته شـهرةً فائقـةً[2].

وحـدث أن أنشـئت هيئـةٌ «**لاستكشـاف فلسـطين**» بغـرض «**اكتشـاف الارتبـاط بـين التاريـخ المقـدس والجغرافيـا المقدسـة**» أي المتعلقـين بالكتـاب المقـدس. وكان مـن ضمـن برنامجهـا استكشـاف جزيـرة سـيناء ومسـيرة بنـي إسرائيـل في صحرائهـا. ويقـترح المـشروع «**تتبـع بنـي إسرائيـل في رحلاتهـم الكثـيرة مـن مـصر إلى سـيناء، ومـن سـيناء إلى قديـش، ومـن ثـم إلى أرض الميعـاد**»[3]. وتألّفـت البعثة الاستكشـافية مـن السـير هـنري جيمـس، رئيـس مسـاحة المدفعيـة ومـن الكابـتن تشـارلز ولسـون، مـن هيئـة سـلاح المهندسـين الملكيـة، ومـن بالمـر بوصفـه مترجـمًا وجامعًـا للنقـوش وباحثًـا. بيـد أن د. ميشـال جحـا يشـير إلى «**أن بالمـر عُـيِّن كبـير مترجمـي القـوات البريطانيـة في مـصر...**» [4]. المسـتشرق الإنجليـزي هـذا يصـف مهمّتـه بنفسـه بالقـول: «**كان عمـلي يقـوم أساسًـا عـلى الحصـول مـن البـدو عـلى أسـماء الأماكـن في شـبه جزيـرة سـيناء، بينـما كان الضبـاط يقومـون بالمسـاحة...**» [5].

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي. مرجع سبق ذكره. ص ٤٢.

(٢) العقيقي. مرجع سبق ذكره. ص ٨٩ - ٨٨.

(٣) أُنظر في هذا الصدد:
Arthur John Arberry: oriental essays: portraits of seven scholars, PP. 122. London. E. Allen and Unwin, 1960.

ود. بدوي. ص ٤٢.

(٤) د. ميشال جحا. مرجع سبق ذكره. ص ٣٨.

(٥) د. عبد الرحمن بدوي... مرجع سبق ذكره. ص ٤٢. كذلك:
Arthur John Arberry: oriental essays... op. PP. 123.

يبدو من خلال ذلك، أن مهمة أدوارد بالمر كانت بكل تفاصيلها مهمةً مخابراتيةً تجسّسيةً ذاتَ طابعٍ سياسيٍّ وعسكريٍّ، كما عني في الوقت نفسه، بتسجيل عادات البدو وأعرافهم؛ وهذا ما تبيّنه بوضوح آثاره ومؤلفاته. والواقع، أن بالمر لم يكتف بهذه الرحلة فقط؛ فبعد عودته إلى إنجلترا مع البعثة سنة 1869، رجع مع شابٍّ يدعى «**تشارلز دريك**» (Ch. Drake) لاستكشاف سيناء مرةً أخرى، خصوصًا في شمال شرقها. وكان يهدف خصوصًا إلى تحديد موقع قديش، والبحث في أرض مواب عن نقوشٍ.

وسافر إلى القدس حيث نقل الكتابات الكوفية الموجودة على قبة الصخرة واستكشف القدس القديمة. ثم سافر مع زميله إلى لبنان ومنه إلى دمشق حيث التقى بالكابتن بورتون الذي سيصبح في ما بعد السير ريتشارد بورتون، وكان آنذاك قنصلاً بريطانيًّا في العاصمة السورية. وكان بورتون قد «**التحق قبلًا بالجيش الإنجليزي بالهند. وزار بالمر مصر والسويس، واستقل سفينة الحج إلى ينبع والمدينة ومكّة، ثم قصد إلى مجاهل إفريقيا الشرقية والحبشة، ورحل إلى أواسط إفريقيا وغربها، واكتشف بحيرتيّ تنجانيقا وفكتوريا، ثم عاد إلى مصر وقام بمسحٍ جيولوجيٍّ لأراضٍ لم تمُسح من قبلُ**»[1]. بعد ذلك سافر بالمر إلى جبل العلويين، وواصل السفر إلى إستانبول... ولقد زادت هذه الأسفار في خبرته واطلاعه، ألّف على أثرها عددًا من المؤلفات، كان منها: «**أورشليم مدينة هيرود وصلاح الدين**» بالاشتراك مع وولتر بيزنت، (Walter Besant)، و«**موجز جغرافيا الكتاب المقدس**» و«**تاريخ الأمّة اليهودية**»... وبدعوةٍ من ماكس ميلر (Max Müller) قام بترجمة جديدةٍ للقرآن كي تنشر في سلسلة «**كتب الشرق المقدسة**» التي كان ميلر يتولى إصدارها. وقد اشتهرت هذه الترجمة بعد طبعها مع مقدمةٍ بقلم المستشرق الإنجليزي رينولد ألين نيكلسون (R.A. Nickolson).

فضلاً عن ذلك، فقد مارس بالمر العمل الصحافي بسبب ضآلة راتبه أستاذًا في جامعة كامبردج؛ وكان ذلك في جريدتي «**ديلي نيوز**» (Daily News) و«**ستاندرد**» (Standard).

(١) أُنظر: د. ميشال جحا. مرجع سبق ذكره.ص ٣٩. ونجيب العقيقي. مرجعٌ سبق ذكره. ص ٩٠ - ٨٩.

ولمّا راحت بريطانيا سنة 1882 تعد عدّتها الاحتلال مصر، دعاه الرئيس الأول للبحرية الإنجليزية لورد نورثبروك (Northbrook) في 27 حزيران/ يونيو 1882 لمقابلته. وفي المقابلة أخبره أن بريطانيا تريد الاستفادة من خبرته بسيناء والاتصال بأهلها (وهو على معرفةٍ بهم من قبل) لكي يقوم بتأليبهم ضد مصر، خصوصًا أثناء ثورة أحمد عرابي باشا، ويستخدمهم بالتالي لتأمين الجانب الشرقي من قناة السويس لصالح بريطانيا. ووافق بالمر على القيام بهذه المهمّة الدنيئة التي لا تليق بعالِمٍ أبدًا. وقد وصف صديقه وولتر بيزنت (Walter Besant)هذه المهمة بالدقة فقال: «**كانت مهمة بالمر كما فهمها، ما يلي: كان يمكن أن يذهب إلى صحراء شبه جزيرة سيناء... وكان عليه أن يتنقّل بين الشعب فيها، من قبيلةٍ إلى قبيلة، لمعرفة مدى الاهتياج بين الناس أوّلًا ضد عرابي باشا، وثانيًا، المحاولة في أن يفصل مجموع القبائل، إذا استطاع، عن القضية المصرية، ومن أجل هذا كان عليه أن يقوم بإجراء ترتيباتٍ مع الشيوخ لجعلهم يلتزمون السكون، أو عند الضرورة أن ينضمّوا إلى القوات البريطانية ويحاربوا في صفوفها ضد الجيش المصري، أو أن يعمل بطريقةٍ أخرى من شأنها خدمة المصالح البريطانية. وبما أن القلق الإنجليزي كان شديدًا على سلامة قناة السويس، فكان عليه أن يتخذ أيَّ خطواتٍ يراها هي الأفضل من أجل الحراسة الفعلية للشواطئ الشرقية للقناة، أو لإصلاح القناة، لو حاول عرابي تدميرها. وكان تأمين سلامة القناة يبدو في ذلك الوقت أهم نقطةٍ على الإطلاق. هذا، ولم تُعطَ له تعليماتٌ مكتوبةٌ أبدًا، بل أُعطيت له التعليماتُ كلُّها شفويًّا أثناء المحادثة معه**»[1].

نفّذ بالمر المهمّة على أكمل وجهٍ، والتقى بعددٍ من شيوخ القبائل وهو يلبس لباسًا عربيًّا كاملًا «**مثلما يلبس العربي المسلم في المدن**»، كما قال، من بينهم عرب قبيلة طرابين، وقبيلة التياهة التي يقول عنها أنها أقوى القبائل العربية في سيناء وأشدّها قدرةً على القتال. كما التقى شيخ قبيلة الحويطات في بواتة (Bowateh) ويدعى مطر أبو صوفية فاستخدمه بالمر لإرسال الرسائل إلى السويس، حيث وصل إليها بالمر في ما بعد وأقام على

(١) أُنظر تفصيلات هذه المهمة في كتاب: Arthur John Arberry: oriental essays... op. P P.150- 151

ظهـر باخـرةٍ متعاونًـا مـع السـير بوشـانب سـيمور (Sir Beauchamp Seymour) مـن الأميراليـة[1].

وأثنـاء مهمـة نقـل البـدو إلى القنـال، كان برفقـة أدوارد بالمـر أربعـة أشـخاصٍ مـن معاونيـه هـم: الكابـتن وليـم جـون جـل (Gell)، واللفتنانـت هارولـد شـارنغتون (Charrington) وخـادمٌ سـوريٌّ مسـيحيٌّ يدعـى خليـل عتيـق، وأحـد معاونيـه اليهـود ويدعـى «**باخـور حسـون**». وإلى جانـب هـذه الجماعـة، كان معهـم مطـر أبـو صوفيـة وابـن أخيـه سـلامة بـن عايـض وعـددٌ مـن الجمّالـين.

وقـد نصـب بعـض البـدو كمينًـا لأولئـك الخمسـة، واقتادوهـم إلى وادي سُـدْر (في الجنـوب الغـربي مـن سـيناء) وقتلوهـم وألقـوا بهـم في وادٍ سـحيق[2].

وهكـذا لقـي بالمـر جـزاءه عـمّا قـام بـه مـن تجسّـسٍ ودسـائسَ وتآمـرٍ تمهيـدًا لغـزو بريطانيـا لمـصر واحتلالهـا لهـا، احتـلالاً دام مـن ذلـك التاريـخ حتـى سـنة 1956، بعـد تأميـم شركـة قنـاة السـويس إثـر القـرار التاريخـي الـذي اتخـذه الرئيـس جـمال عبـد النـاصر.

وكان لبالمـر وأمثالـه أن يسـتحق نهايـة غـير هـذه النهايـة، بـل وأبشـع، حتـى أن زميلـه في الاسـتشراق، ومواطنـه آرثـر آربـري قـال: «**إن بالمـر يسـتحق هـذه النهاية، لأني -يقـول آربري-أؤمـن وبـكلٍ رسـوخٍ وقـوّةٍ، أنّ المهمّـة الحقيقيـة للعـالم هـي العلـم، لا السياسـة**»[3].

ويبـدو أن آرثـر آربـري لم يـصرح بذلـك إلا تكفـيراً لذنوبـه عـن مهمتـه التـي كُلّـف بهـا عنـد انـدلاع الحـرب العالميـة الثانيـة، حيـث نُقـل إلى قسـم الرقابة على البريـد التابـع لـوزارة الحـرب في ليفربـول، فأمـضى فيـه سـتة أشـهرٍ نُقـل بعدهـا إلى وزارة الإعـلام في لنـدن، فبقـي في هـذا العمـل أربـع سـنواتٍ يُصـدر بنفسـه أو مـع غـيره، منشـوراتٍ لا نهايـة لهـا للدعايـة البريطانيـة في الـشرق الأوسـط باللغتـين العربيـة والفارسـية؛ بـل إنـه ظهـر في فيلـم للدعايـة البريطانيـة[4].

---

(١) المرجع السابق نفسه. ص ١٥٤ - ١٥٦

(٢) راجع: نجيب العقيقي. مرجع سبق ذكره. ص ٨٩.

وميشال جحا. مرجع سابق. ص ٣٨. وعبد الرحمن بدوي. مرجع سابق. ص ٤٦.

(٣) أُنظر: Arthur J. Arberey : op. PP. 159

(٤) راجع: د. عبد الرحمن بدوي.مرجع سبق ذكره. ص٦.

لورنس العرب (1888 - 1935)

يعتبر توماس أدوارد لورنس (الملقب بلورنس العرب) في طليعة الرجال الذين قدموا لبريطانيا والصهيونية معًا، خدماتٍ تعجز عن تحقيقها مؤسّساتٌ كبيرةٌ، لذلك يُعتبر من أشهر رجال بريطانيا العظماء.

ولد لورنس في مقاطعة ويلز الإنجليزية في 16 آب/ أغسطس سنة 1888. وهو ابن غير شرعي للسير توماس روبرت تشابمان من السيدة سارة مادن، مربّية بناته الأربع من زوجته الأولى. إلا أن توماس غيّر اسم عائلته بعدما هاجر من إيرلندا إلى إنكلترا، وأصبح يُعرف باسم لورنس منذ ذلك الحين.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1907، التحق لورنس بكلية يسوع في أكسفورد. وهناك سجل لنفسه عدّة اكتشافاتٍ رائعةٍ عندما كان يقوم بالتنقيب عن الآثار تحت مياه البحر. واستطاع من خلال ذلك أن يسترعي انتباه بعض مشاهير علماء الآثار الذين كانوا يتمتعون بمراكزَ هامّةٍ في جهاز الاستخبارات البريطانية وكان على رأسهم الدكتور دايفيد جورج هوغارت، أستاذ لورنس، وكذلك ليونارد وولي.

«كان هوغارت، ضابط الاستخبارات البريطانية المتخصص بشؤون الشرق الأوسط. وكانت معلوماته عن أوضاع البلدان العربية في ظل الحكم العثماني لا تضاهى في ذلك الحين. فقد أمضى هوغارت، وقتًا طويلاً يدرس أحوال هذه المنطقة من النواحي السياسية والوطنية والدينية، والتحركات السرية ونوعية قياداتها، ونشاط الألمان والفرنسيين، والبوليس السري التابع لهم، وطبيعة الأرض الإسلامية ونفسية الحكام العسكريين فيها، وجوّ المعارك المتوقع في حال نشوب حربٍ.

والواقع أنه كان للدكتور هوغرات تأثيرٌ هامٌّ على مجرى حياة لورنس. كما لم يكن ذلك بعيدًا عن نشاط المخابرات البريطانية في محاولتها كسب لورنس إلى صفوفها، حيث أشارت إلى أستاذه بضرورة الاهتمام به بعد نجاحاته واكتشافاته وتفوّقه، وتجيير كلّ ذلك لصالح السياسة البريطانية بمجملها. وهكذا تمكّن لورنس، بواسطة هوغارت، من الحصول على منحةٍ خوّلته الاشتراك في رحلةٍ «**علميةٍ**» للقيام بالبحث والتنقيب عن الآثار في

وادي الفرات. كانت هذه البعثة برئاسة هوغارت نفسه الذي عيّن لورنس في بعثته رئيسًا على فرق العمل التي كانت تتألّف من الأكراد والعرب والتركمان والأرمن. وقد نجحت هذه البعثة في العثور على مدينة كركميش التي كانت قديمًا عاصمة الإمبراطورية الحثّية... هذا ويضم متحف أشمولين في أكسفورد الكثير من الآثار التي **«وهبها»** لورنس له لعرضها فيه قبل أن يبلغ العشرين من عمره[1]. وفي معرض الإشارة إلى أهمية هذه البعثة يقول الأستاذ زهدي الفاتح: **«ظلت مهمة هذه البعثة سرًّا دفينًا، إلا أن أفرادها كانوا يعملون في مناطقَ مهمّة للغاية، عسكريًّا واستراتيجيًّا، ويمكن تشبيه مهمة هذه البعثة ومموليها بأيٍّ بعثةٍ أميركيةٍ مماثلةٍ في هذه الأيام، تموّلها المخابرات المركزية الأميركيّة»**[2].

والجدير بالذكر أن لورنس تعرّف على جميع المواقع الاستراتيجية التي كانت موجودةً في المنطقة بأسرها. كيف لا، وهو الذي تجوّل في جميع أرجاء المنطقة سيراً على الأقدام، يشاهد مواقعها، ويدقّق ويبحث، حتى **«أصبح مرجعًا للمعلومات الدقيقة عن منطقة الشرق الأوسط، وطبيعة تكوينها ومعالمها الطوبوغرافية»**[3]. وقد بلغ حدًّا من النشاط، جعل الأتراك يرتابون بأمره في عام 1912، وعندما شعر بملاحقته ومراقبته من قبلهم، كتب إلى أستاذه هوغارت يقول: هذه الدولة العجوز، ما زال فيها بعض حياةٍ بعد، إنّها تراقبني»[4].

من خلال هذه الكلمات، تتوضح مهمّة لورنس بالتحديد، وتجاوز العلاقة **«العلمية»** بينه وبين أستاذه إلى ما هو أبعدُ من ذلك بكثيرٍ، عبر استغلال اختصاصه بتوجيهاتٍ استخباراتية، يمثل هوغارت حلقة الاتصال المركزية فيها. ولو كان نشاطه بعيدًا عن هذا الواقع، لما أظهر قلقه وخوفه من المراقبة العثمانية، ليبلغ المخابرات البريطانية وحدها بما يتعرض له.

---

(١) أُنظر: زهدي الفاتح «لورنس العرب على خطى هرتزل» دار النفائس بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧١. ص ٣٣.

(٢) راجع: انتوني ناتنغ ولوبل توماس «لورنس لغز الجزيرة العربية» دار النفائس، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٨٢. ص ١٦.

(٣) زهدي الفاتح. مرجع سبق ذكره. ص ١٤ - ٣٣.

(٤) انتوني ناتنغ ولويل توماس. مرجع سبق ذكره. ص ٣٠.

هـذا وقـد عـبّر لورنـس نفسـه عـن طبيعـة العلاقـة الوثيقـة التـي تربطـه بالاسـتخبارات عبـر أسـتاذه -عـالم الآثـار- حيـث ألحـق بمدرسـة الإرسـاليين الأميركيـين في جبيـل بلبنـان، لتحسـين لغتـه العربيـة. إلا أنـه قـال في ذلـك: «**لسـببٍ مـا يريـدني هـوغارت إتقـان العربيـة**»[1].

وبالفعـل، فقـد توضّـح هـذا السـبب في مـا بعـد عندمـا عمـدت الاسـتخبارات البريطانيـة لتحويلـه مـن عـالم آثـارٍ إلى عسـكريٍّ خبيرٍ في شـؤون المنطقـة. وفي هـذا المجـال بـرزت موهبـة لورنـس العسـكرية النابعـة مـن معرفتـه لـكل التفاصيـل الدقيقـة، المتعلقـة بمنطقـة عملـه. لذلـك، عُـيِّن في دائـرة الخرائـط التابعـة لرئاسـة القـوات البريطانيـة في الـشرق الأوسـط، حتـى أن الضباط أنفسـهم كانـوا يستشـيرونه بشـأن أيِّ خطّـةٍ يريـدون الاتفـاق عليهـا، مـع العلـم أنـه كان واحـدًا مـن فرقـةٍ خاصـةٍ تتألـف إلى جانبـه مـن ليونـارد وولي، ونيوكومـب، عهـد إليهـا الإنكليـز مهمـة القيـام بوضـع الخرائـط، خاصـةً تلـك المتعلقـة بشـبه جزيرة سـيناء، بعـد توغّلهـم فيهـا متخفّـين. ونجحـوا نجاحًـا كبيرًا.

بالإضافـة لـكلّ ذلـك، فقـد شـغف لورنـس بمطالعـة الكتـب العسـكرية ووقائـع الحـروب والتعمـق في دراسـتها واستيعـابها. ونظـرًا لتأثّـره بهـا فـإنه اختـار مـوضـوع الهندسـة المعماريـة العسـكـرية التـي شيّـد الصليبيـون قلاعهم بموجبهـا، موضـوعًـا لأطروحتـه الجامعيـة تحـت عنـوان «**قـلاع الصليبيـين**»، نال عليهـا مرتبـةً الشـرف الأولى لأنـه اعتمـد فيهـا عـلى التزويـر والتشـويه قائـلاً بـأن الصليبيـين هـم الذيـن نقلـوا إلى الـشرق الأوسـط علـوم الهندسـة الحربيـة في الغـرب.

وفي كانـون الثـاني/ ينايـر 1914، انخرط لورنس رسـميًّا في سـلك الاسـتخبارات البريطانيـة العسـكرية. ونقـل مـن قسـم الخرائـط إلى دائـرة المخابـرات السريـة التـي كـان عملهـا منحـصرًا في المناطـق التـي يحتلهـا الأتـراك، حيـث عُـيّن رئيسًـا لأحـد فـروع تلـك الدائـرة. ولـكي يكـون جديـرًا بالمسـؤولية الجديـدة، وناجحًـا في تنفيذ سيـاسة أسيـاده، فإنه سـعى لتجنيـد عددٍ من الشـبان المحليين في دائرتـه، انطلاقًـا مـن التسـهيلات المتوفـرة لهم في التوغـل إلى مـا وراء المناطق

(١) زهدي الفاتح. ص ٣٤.

المحتلة والخروج منها بعد حصولهم على كافة المعلومات المطلوبة.

وبالإضافة لذلك، فقد تولّى عملية استجواب أسرى الأتراك توصّلاً إلى معرفة أماكن قواتهم وعددها. وبالفعل نجح لورنس في هذا المجال نجاحًا كبيرًا واعتبر رجل مخابراتٍ من الطراز الأول، في الوقت الذي شكّلت فيه الحرب العالمية الأولى نقطةَ تحوّلٍ بارزةً في تاريخ الاستخبارات. «**قبلها، كان هذا العلم ذا أهميةٍ ثانويةٍ، في حين أصبح بعدها يشكل دعامةً في مقدمة الدعامات، في الحرب كما في السلم. لم تَعُدْ الاستخبارات وفنونها المختلفة، كما كانت قبل الحرب، طفلاً يحبو متلمِّسًا طريقه. أصبحت مكتملة النموّ شديدة البأس، تعتمد على نفسها ويعتمد عليها الآخرون. وهذا ما أدى في ما بعد، إلى التفاعل المستمر بينها وبين المعلوماتية**»[1].

بلغ لورنس في عمله الاستخباري هذا مرتبةً عاليةً؛ وكانت علاقاته المباشرة مع القادة الإنكليز -سياسيين وعسكريين- لها الطابع الفاعل والمؤثر على مجمل السياسة البريطانية، من خلال لقاءاته مع اللورد كيتشنر، المقيم البريطاني في مصر؛ والدكتور هوغارت، ضابط الاستخبارات المتخصّص بشؤون الشرق الأوسط؛ والكولونيل جيلبرت كلايتون رئيس قلم الاستخبارات البريطانية في القاهرة. والآنسة جروترود بل (Bell)، المستشارة السياسية للسير بيرسي كوكس، رئيس المكتب السياسي في الشرق بصورةٍ غيرِ رسمية؛ والكولونيل بيتش، الضابط البارز في قسم الاستعلامات التابع للفرقة التي يقودها الجنرال تاونسند، بالإضافة إلى عددٍ من زملائه «**العلماء**» أمثال مارك سايكس ولوبري هوبرت وكورنواليس ونيوكومب وليونارد وولي ولويد جورج، إلخ...

هذه الشبكة الاستخبارية التي لعب فيها لورنس الدور البارز -تحت ستار البحث العلمي والاستشراق- كان لها أهميتها الكبرى لإنكلترا. إذ كانت بمثابة أعينها وآذانها وأصابعها في المنطقة العربية، حتى أنها شاركت عمليًّا في المعارك العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى، في الوقت الذي كانت

(١) دايفيد كان «حرب الاستخبارات» ترجمة عبد اللطيف أفيوني. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢ ص ٥٢ - ٥١

تمارس فيه عمل التجسس والاستخبارات. وفي معرض ذلك، يقول أيسر هرئيل، رئيس الاستخبارات الإسرائيلية الأسبق (الموساد): «**إن شبكات الجاسوسية ما هي إلا نوعٌ من الحرب الباردة، ولكنها حربُ أدمغةٍ لا حربُ سلاحٍ ونارٍ**»[1].

وبالفعل فقد كان لورنس دماغ بريطانيا في المنطقة العربية. وبرز دوره الكبير في الحرب العالمية الأولى، من خلال أيٍّ مهمةٍ كُلِّف بها، إن كان ذلك في مصر، أو العراق أو سوريا أو في الجزيرة العربية. كما برز نشاطه واضحًا في المجال السياسي والعسكري والاجتماعي والاستخباري، دون أيٍّ تقصير أو إهمال.

وانطلاقًا من التوجيهات التي تلقّاها لورنس من المخابرات البريطانية، فإنه زعم مناصرته للقضايا العربية والوقوف بجانب قادة الثورة العربية ضد الأتراك دفاعًا عن الحق العربي. بيد أن ذلك لم يكن إلا حلقةً في سلسلةٍ تهدف إلى تطويق المنطقة وخنقها وربطها بالمشاريع الاستعمارية البريطانية وتفويت الفرصة على الفرنسيين. وقد عبّر لورنس عن ذلك في رسالةٍ بعث بها إلى الدكتور هوغارت أعرب فيها عن مخاوفه من أطماع فرنسا في الشرق الأوسط قائلاً: «**إنني أرى أنّ فرنسا، لا تركيا، هي عدوّتنا في ما يتعلق بسوريا**»[2].

كما كان يُكثر من الظهور باللباس العربي، سواءً في القاهرة أو غيرها من المدن العربية والأجنبية -خاصة في باريس أثناء انعقاد مؤتمر الصلح- كي يلفت الأنظار إلى شخصه أكثر من اللزوم... وقد «**رفض ارتداء الملابس العسكرية عندما اشترط عليه الجنرال ويميس قائد القوات البريطانية في مصر، ذلك عند مرافقته إلى الخرطوم في السودان للقاء الجنرال وينغات، القائد العام للقوات البريطانية في شبه الجزيرة العربية**»[3]. والواقع أن تصرف

(١) راجع: دينيس أيزنبرغ وآخرون: «الموساد جهاز المخابرات الإسرائيلية السري». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨١. ص ١١.

(٢) أنتوني ناتنغ ولويل توماس. مرجعٌ سبق ذكره. ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) المرجع نفسه. ص ٦٨ - ٦٩.

كما أن مذكرات رستم حيدر الخاصة بمؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩ تذكر في كثيرٍ من مواضعها ظهور لورنس باللباس العربي، فضلًا عن الصور الفوتوغرافية له. (راجع: نجدة فتحي صفوة. «مذكرات رستم حيدر» الدار العربية للموسوعات. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨).

لورنس بهذا الشكل كان نابعًا من سياسة المراوغة والدجل البريطانية، لإيهام العرب بأنها نصيرتهم وحامية مصالحهم وحقوقهم. هذا في الوقت الذي كان فيه لورنس يلعب دور «**ضابط الارتباط**» بين قادة الثورة العربية من جهةٍ، وبريطانيا من جهةٍ ثانيةٍ.

في الوقت ذاته، كانت التقارير التي يرفعها لورنس إلى المخابرات الإنكليزية، تكشف حقيقة السياسة البريطانية حيال العرب وثورتهم. ففي أحد هذه التقارير السريّة، حدد لورنس في شهر كانون الثاني/ يناير 1916، الأهداف الرئيسية لبريطانيا وللغرب عامةً فقال: «**... أهدافنا الرئيسية: تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها... وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، وهم الأقل وعيًا للاستقرار من الأتراك، فسيبقون في دوامةٍ من الفوضى السياسية داخل دويلاتٍ صغيرةٍ حاقدةٍ ومتنافرةٍ، غيرِ قابلة للتماسك، إلا أنها على استعدادٍ دائمٍ لتشكيل قوةٍ موحدةٍ ضد أيِّ قوّةٍ خارجيةٍ**»[1]. إنه التعبير الحيّ عن روح تقرير كامبل بنرمان...

في هذه الفترة أيضًا (كانون الثاني 1916)، كان الكولونيل جيلبرت كلايتون يعكف في المكتب العربي البريطاني في القاهرة، مع عددٍ من ضباط الاستخبارات البريطانية هناك على إعداد مخطَّطٍ عمليٍّ لتطوير حركة القومية العربية في خدمة الأهداف الحربية البريطانية... وقد «**سبق لماكس نوردو، المفكر الصهيوني، أن أشار في أوائل هذا القرن إلى إمكان استغلال حركة القومية العربية لضرب العرب أنفسهم بحكام الإمبراطورية العثمانية، والقضاء على الإثنين معًا، في فلسطين خاصةً، فيدخل اليهود هذه الأخيرة فارغةً من السكان**»[2].

ومن المؤكّد أنّ ادّعاء لورنس السعي إلى منح العرب الحرية والاستقلال، كان قائمًا على أساس اعتباراتٍ محدّدةٍ واضحةٍ: فقد كان مصمِّمًا على إلحاق البلدان العربية بالإمبراطورية البريطانية، إيمانًا منه بأنّ هذا الوعد هو الوسيلة الأفضل لدفعهم للقتال إلى جانب الإنكليز، على الرغم من أن السياسة الإنكليزية، وهو واحد من المخططين لأسسها، لن تنفّذ أبدًا

(١) زهدي الفاتح. مرجع سابق ص ٦٤.
(٢) المرجع نفسه. والصفحة نفسها.

ذلك الوعد الذي حلم به العرب طويلاً ومن أجله حاربوا. وفي إحدى رسائله إلى صديقته شارلوت شو في 19 آذار/ مارس 1924، يوضّح لورنس قائلاً: «**لقد ساعدت على حبك المؤامرة... وخاطرت، لإيماني أن وقوف العرب إلى جانبنا هو عاملٌ حيويٌّ لتحقيق أملنا بانتصارٍ سريعٍ، بخسِ الثمن، في الشرق، والأفضل لنا أن ننتصر وننكث بوعدنا من أن ننكسر**»[1].

على ضوء ذلك، تبدو بصمات لورنس واضحةً في توقيع اتفاقية سايكس-بيكو وبنودها، خاصةً وأن مارك سايكس كان أحد زملائه وأصدقائه. وقد كان هذا الاتفاق صهيونيًّا كليًّا بدليل اعتناق موقّعَيْه، البريطاني والفرنسي، للصهيونية سنة 1915، باعتراف كريستوفر ابن مارك سايكس نفسه، وكذلك حاييم وايزمن، زعيم الحركة الصهيونية... اعتناقًا لم يَدْرِ به العرب - كما قال - (في كتابه: «**دراسة مأثوتين**»)...

أما بالنسبة لوعد بلفور، فإن لورنس نفسه «**لم يُخْفِ تأييده لهذا الوعد، الذي اعتبره وسيلةً لإبعاد مطامع الفرنسيين عن فلسطين وسوريا كلها، إلا أنّه كان يخفي أمرًا مذهلاً: فقد كان يعمل لإقامة دولةٍ عربيةٍ قوميةٍ في سوريا، تحت الحماية البريطانية، ولكن بتمويلٍ وتوجيهٍ من الصهيونية العالمية... وعندما طلب إليه إنكار محتويات رسالة شتمٍ وتحقيرٍ، وجّهها إلى الدكتور ماك أنيس، كاهن الأبرشية الانكليكانية في القدس، لاعتراض الأخير على فكرة إقامة «وطنٍ قوميٍّ يهوديٍّ»** في فلسطين... رفض ذلك وعاود الكتابة إلى الكاهن يلومه على احتجاجه: كان الأفضل لك أن تفعل شيئًا آخرَ غير الاحتجاج، لكنك غيرُ صالحٍ حتى لتنظيف حذاء وايزمن»[2].

هذا في الوقت الذي كان فيه لورنس «**يقدّر تقديرًا كبيراً حاييم وايزمن منذ أن التقيا في فلسطين بعد سقوط القدس، ليبحث مع الأمير فيصل (ابن الشريف حسين) المقترحات الصهيونية الخاصة بتوطين اليهود في الديار المقدسة**»[3].

(١) المرجع نفسه. ص ٧٠ - ٦٩.

(٢) المرجع نفسه. ص ٢٩ نقلًا عن كتاب:
فيليب نايتلى وكولين سمبسون «تقارير لورنس السرية» منشورات نلسون ١٩٦٩. ص ١٠٨ و١٧٦.

(٣) أنتوني ناتنغ ولويل توماس. مرجع سابق ٢٣٨.

هـــذا يعنـي بصـورةٍ واضحـــةٍ أن لورنـس لم يكـن فقـط ممثـلاً لبريطانيـا في بـــلاد العـرب، بـل كان إلى جانـب ذلـك رسـولاً أمينًـا للصهيونيـة يحمـل أفكارهـا ومقترحاتهـا ويعمـل بتوجيهـاتها وعـلى أسـاسها، حتـى مـع الذيـن وعدهـم بالحريـــة والاسـتقلال وتخليصهـم مـن الحكـم الـتركي.

ونظـرًا للخدمــات الكبـيرة التـي قدّمهـا لــورنس لبريطانيـا مـن خـلال مهمتـه، الاسـتخبارية الاسـتشراقية، في المنطقــة العـــربية، فقـد «**بـكى ونسـتون تشرشـل في جنازتـه يــوم 13 أيـار/ مايـو 1935، ووصفـه بأنـه الأكـثر شهـرةً بـين رجـالات بريطانيـا العظـماء، مؤكِّـدًا أنـه لـن يظهـر لـه مثيـلٌ، مهـما كانـت الحاجـة إليـه ماسـةً... وقـد أطلـق عليـه أسـماءٌ عديـدةٌ كـ«لــورنس العـرب»، و«أميـــر مكـة» و«ملـك الغـرب غـير المتـوّج»** نظـرًا لنشـاطه ودقـة معلوماتـه التـي نقلهـا عـن المنطقـــة العـربيـــة إلى الاسـتخبارات البريطانيـة... لذلـك أقيـم لـه تمثـالٌ مـع تمثـاليَْ نلســون وولنغتـــون في كاتدرائيـة ســان بـول ببريطانيـا»[1].

ومـمّا يجـدر الإشـارة إليـه أيضًـا، أن «**لورنـس العـرب**» كان جاسوسًـا ماهـــرًا، بـل أسـتاذًا في فـنّ التجسـس، «**يديـن لـه المارشـال ألنبـي (Allemby) بالنـصر الـذي أحـرزه في ميـدان فلسـطين. فلـولا التقاريـر الوافيـة التـي كــانت تصلـه مـن لورنـس عـن حـركات الأعـداء بواسـطة شـبكة الجاسوسـية التـي نظمهـا بإتقـانٍ، مــع ضغـط غاراتـه غيـــر المنظمـة، لمـا تقدمـت الحملـة بمثـل هـذه السرعـة ولا ظفـرت بهـذا النـصر**»[2].

وفي كتـــاب «**كبـار المعــاصرين**»، دُبّـج مقـالٌ بيـــراع أقدر ساسـة هذا العصـــر وأبعدهـم صيتًـا وأعمقهـم في مصائـر البشريـة أثـرًا، ونسـتون تشرشـل، جـاء فيـه: «**كتـب الملـك جـورج الخامـس إلى أخ لورنـس (بعـد وفاتـه) يقـول: إنّ اسـمه سـيخلد في صفحـات التاريـخ**»، وهـذا حـقٌّ لا شـكَّ فيـه، ولكنـي أزيـــد عليه أن اسـمه سـيخلد في الأدب الإنجليـزي، وفي تقاليـد سـلاح الطـيران الملـكي، وفي

(١) زهدي الفاتح. ص ٢٨و ٣٢ - ٣١ و ٣٥.

(٢) عمر أبو النصر «الجاسوسية حرب الخفاء بين المخابرات والتجسس والأسرار بين دول العالم» دار الأمم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، د. ت. ص ٤٢.

سـجلات الحـرب. وفي أسـاطير جزيـرة العـرب...»[1].

فهـذا هـو العـالم الكبـير، والمسـتشرق الشـهير، لورنـس العـرب، عـلى حقيقته؛ وليـس هـو إلا النمـوذج الحـيّ للاسـتشراق العسـكري البريطـاني والغـربي عمومًا.

هـذا، وقـد تـرك لورنـس كتابًـا مهـمًّا يحتـوي عـلى كثيـرٍ مـن الأحـداث والأسرار التـي عاشـها بـكل جوارحـه، وكان في معظمهـا محـرِّكًا ومشـاركًا بصـورةٍ شـخصيةٍ. كـما انتقـى لـه عنوانًـا مثـيراً أيضـًا، وهـو: «**أعمـدة الحكمـة السبعـة**»، وقـد تُرجـم إلى مختلـف اللغـات العالميـة، ومنهـا العربيـة والفرنسـية.

تناولـه الكثـيرون مـن مشـاهير العـالم، وأدلـوا برأيهـم فيـه. وكان مـن بينهـم عظـماء الإنكليـز، حيـث قـال ونسـتون تشرشـل: «**إن أعمـدة الحكمـة السـبعة هـي قصـة الحـرب والمغامـرة، وهـي المختـصر التـامّ لمـا يمكـن أن يعنيـه العـرب للعـالم. لهـذا فلقـد احتـل مركـزه فـورًا، بـين الكتـب الكلاسـيكية الإنكليزيـة...**»[2].

أمـا السـير هربـرت صمـوئيل، أول منـدوب سـام بريطـاني في فلسـطين، وهـو صهيـوني قـحّ، وصديـق لورنـس، قـال: «**سـيظل هـذا الكتـاب نموذجـاً عـلى أضخـم مـا أنتجتـه العبقريـة**»[3].

وبـدوره - قـال جـون فيلبـي: «**هـذا مؤلَّـفٌ عظيـمٌ، وقـد يكـون مـن أضخـم ما صـدر في هذا القـرن...**»[4].

وإذا مـا غصنـا في العمـق السـياسي والعسـكـري والإيديولوجـي والاجتماعي والـوظيفي وحتـى النفـسي لكـل مـن هـؤلاء، نجـد أن تعبـيراً واحـدًا يختـصر مجـرى حياتهـم وتفكيرهـم وتطلعاتهـم المسـتقبلية؛ وهـذا التعبـير الواحـد هـو «**الصهيونيـة**».

---

(١) بريدج... وتشرشل «لورنس بطل الجزيرة» ترجمة محمد بدران، وأحمد حلمي علي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، د. ت. ص ٩٦.

(٢) راجع: ريجينا الشريف «الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي» ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز. الكويت ١٩٨٥. ص ١٣٥.

(٣) أُنظر: ريجينا الشريف. المرجع السابق. ص ١٢٩. كذلك:
Israel cohen: the zionist Movement, New York 1946. P. p. 51.

(٤) راجع تفاصيل ذلك في كتاب:
Franz Kobler: the vision Was there, (london 1956). P.p. 65.

وريجينا الشريف. المرجع السابق. ص ١٣٠.

تشارلز هنري تشرشل

كـان هـذا المستشرق «**حفيدًا للدوق مارلبورو؛ ولذلك فهو الجدّ الأعلى لونستون تشرشل**»[1]. كما كان واحدًا من الرعيل الأول من الصهيونيين السياسيين والعسكريين غير اليهود. وقد عمل ضابطًا في الحملة البريطانية التي أُرسلت إلى سوريا وساعدت السلطان العثماني على الإطاحة بمحمد علي باشا (والي مصر)، وإجلاء جيوشه عن بلاد الشام. إضافةً لذلك، فقد كان تشرشل ينتقد سياسة بالمرستون الشرقية التي ترمي إلى الإبقاء على الإمبراطورية العثمانية على قيد الحياة قدر المستطاع، ويدعو بدلاً من ذلك إلى تحرير سوريا وفلسطين من تركيا ووضعها تحت الوصاية البريطانية. أما اليهود فهم بنظره مستوطنون وحماة للمصالح البريطانية.

وفي 14 حزيران/ يونيو 1841 كتب تشارلز تشرشل لموسى مونتفيوري، رئيس مجلس الوكلاء اليهودي في لندن، يقول: «**لا أخفي عنك رغبتي الجامحة في «أن أرى قومك يحاولون استعادة وجودكم كشعبٍ، وأرى أن الموضوع ميسورٌ تمامًا؛ لكنْ، هناك شرطان ضروريان لذلك: أولهما أن يتولى اليهود أنفسهم الموضوع عالميًّا وبالإجماع، وثانيهما أن تساعدهم القوى الأوروبية على تحقيق أهدافهم**»[2].

وفي عام 1842، بعث تشارلز تشرشل رسالةً إلى مونتفيوري أيضًا طالبًا منه أن ينقل لليهود الألمان «**خطابًا ألمانيًّا**» أرفقه مع رسالةٍ واقترح فيه: «**أن يقدّم يهود إنجلترا، بالتعاون مع إخوتهم في أوروبا، طلبًا للحكومة البريطانية بوساطة وزير خارجيتها «إيرل أبردين»** لإيفاد شخصٍ كفؤٍ للإقامة في سوريا تكون مهمته الإشراف على مصالح اليهود هناك»[3]. لكن هذا الطلب قوبل بالرفض اليهودي. هذا وقد ترك تشرشل عددًا من المؤلفات منها: «**عشرُ سنواتٍ في جبل لبنان**» - و«**بين الدروز والموارنة**» إلخ...

(١) أُنظر: توماس أدوارد لورنس. «أعمدة الحكمة السبعة». منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت. الطبعة الرابعة. ١٩٨٠. الغلاف الأخير.

(٢) المرجع نفسه. والصفحة نفسها.

(٣) المرجع نفسه.

وخلاصة القول: إن مهمة «**البحث العلمي**» والآثار» و«**الاستشراق**»، لم تكن لدى رجال بريطانيا والغرب في المنطقة، سوى الستار الذي اختفت وراءه كل المهمات السياسية والعسكرية والتجسّسية القذرة، لإنكلترا عندنا. كما كانت «**الواجهة البريئة**» لأكبر جرائم العصر في القرن العشرين بحق العرب والمسلمين والإنسانية جمعاء، والمتمثلة بجريمة ذبح شعب فلسطين العربي وتشريده من دياره وأرضه، بغية اغتصابها وإقامة دولة الاحتلال الصهيوني فوقها، إضافةً إلى خطط تمزيق الشعب العربي والإسلامي ونهب ثروات بلاده والتحكّم بوجوده ومصيره معًا. وقد كان الاستشراق العسكري الغربي هو الذراع الأيمن للاستعمار إلى جانب الذراع الأيسر له (الاستشراق السياسي)... ولا نزال حتى اليوم نعاني من مخلّفات ما زرعه الاستعمار في بلادنا، وما تركه لنا من مآسٍ وكوارثَ...